تراكيب الجمل ودلالته على المعنى في رسالة ابن زيدون الهزلي

د. حسن محمد حسن خبيري – كلية الآداب ـ جامعة سبها

Has.khabeeri@sebhau.edu.ly

الملخـــــص :

الكتابة الأدبيـــة فن، وكل كاتب يجتهد في كتابته لإبراز قدرته الفنية وهنا يكون اختلاف الأدباء والكتاب في فنهم وإبداعهم، بتوظيفهم الأسس الفنية من بنية تركيبية، وجوانب بلاغية، وتخير الأسلوب الأدبي لصياغة الفكرة وتحويلها إلى عمل إبداعي وهذا البحث يتناول أحد الجوانب الفنية في كتابة العمل الأدبي، وهو تراكيب الجمل في رسالة ابن زيدون الهزلية ، وأثره على المعنى الذي يريده الكاتب، ويكون ذلك بالنظر في استخدامه للجمل الإسمية أو الفعلية واعتماده على أيهما للدلالة على المعنى، ثم النظر إلى الأسماء والصيغ التي جاءت بها في تلك الجمل، من حيث كونها اسم فاعل أو اسم مفعول أو صفة شبهة أو صيغة مبالغة، وأثر ذلك على أداء المعنى. ثم النظر إلى الأفعال وأزمنتها بين ماض ومضارع وأمر، والبحث عن سبب اختيار الكاتب لزمن الفعل، وارتباط ذلك الاختيار بالمعنى من حيث القوة والوضوح، و- أيضا - من حيث بناء هذه الأفعال للمعلوم أو المجهول ، ومن حيث حذف الفاعل أو إثباته، ومن حيث تقديم المفعول على الفاعل ، وما نتج عن ذلك من إبراز فكرة الكاتب، وتوضيح المعنى.

Abstract

Literary writing is an atr, and every writer strives in his / her writing to highlight his /her artistic ability. here the difference between writers and scholars of literature is in their art and creativity by employing the artistic foundations of a synthetic structure rhetorical aspeects and choosing the literary style to formulate his /her idea and turn it into a creative work .

المقدمـــة :

اللغـــــة أصوات وظيفتها التعبير عما في نفس المُتحدث ، أيًّ ما تكون صفته ، شاعرا، أو ناثرا، أو بشرا معبرا عما يجول في خاطره ، أو حيوانا يعبر عما يحس من رغبة أو جوع أو ألم ، فكلها لغة ووسيلة تعبير ، وهي ألفاظ وكلمات، ولابد لها من أن تدخل في سلك النظم حتى تعطي معنى، وتؤدي وظيفتها التعبيرية. إذن لابد من أن يكون لها طابع تركيبي ، وأن تكون جملا يكتمل بها المعنى، ويفهم من خلالها القصد. وهذا هو مطلق استعمال الألفاظ، لا بد أن تكون جملا ، ولما كان هذا هو حال مستعملي هذه الألفاظ، فإن الأديب يكون استعماله لها أدق ، وتخيره لها أكثر، وعنايته بحسن تركيبها ضرورة

فنية. فأي عمل أدبي شعرا أو نثرا، يحرص كاتبه على حسن تركيب جمله، لأن المعنى يصل إلى القارئ من خلالها، وهي أحد الأسس الفنية التي يقيس القارئ بها درجة ابداع الكاتب ، "والكاتب إذا كان ماهرا، أعرب معانيها، ولطف مبانيها، وسهل فيها مالا يكاد أن يسهل في الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير ولا تتجاوز."(1).

ومن ثم سيكون هذا البحث عن تراكيب الجمل عند ابن زيدون في رسالته الهزلية؛ فلا شك أن فيها جانبا فنيا حريً بالدراسة.

وقبل أن نعرض لهذا الجانب لابد لنا من وقفة قصيرة مع هذه الرسالة التي ندرسها. فهي رسالة أدبية نالت شهرة كبيرة في العصر الذي كتبت فيه، وفي العصور التي تلته، فلا تكاد تخلو الكتب التي تناولت الأدب الأندلسي، أو النثر العربي من ذكرها أو الإشارة إليها، وأشهر من عني بها في عصرها ابن نباتة المصري الذي شرحها في كتابه سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون. كما احتفى بها ابن بسام الشنتريني في كتابه الذخيرة "(2)، ثم توالت الكتب التي أوردتها ضمن مختارات النثر العربي.

أولا ـ موضوع الرسالة:

عندما نقف عند موضوع الرسالة الهزلية نجدها حملت فكرة واحد ة، وهي السخرية من ابن عبدوس وإظهار مساوئه ، والانتقاص منه أمام ولادة بنت المستكفي، فهذه هي الفكرة التي يدور حولها ابن زيدون ويسعى لإيصالها لولادة أولا، ثم للقارئ ثانيا، فطابع هذه الرسالة يبدو فيه أنها كتبت لإفراغ شحنة الغيرة والغضب التي كانت تسيطر عليه ، ثم بعد ذلك إقناع ولادة وتبصيرها بحقيقة ابن عبدوس معتمدا في ذلك على براعته الفنية، وثقافته الواسعة.

ونلاحظ أن موضوع هذه الرسالة جاء متسلسل العناصر والأفكار , حيث نجد ابن زيدون يوضح لنا في الرسالة رؤيته لابن عبدوس وصورته الحقيقة ، ثم يوضح لنا الصورة المزعومة التي يرى ابن عبدوس بها نفسه ، وفي ذلك يسعى ابن زيدون إلى إثبات الأولى ومحو الثانية .

وابن زيدون في كتابته لهذه الرسالة اهتدى بمن سبقه إلى هذا الفن ، ثم أضاف إليه إبداعه الفني ، إذ هذا الفن ليس وليد عصر ابن زيدون ؛ بل سبق إليه الكتاب في عصور متقدمة ، ونحن في هذا البحث لسنا معنيين بتتبع مراحل نشأة وتطور هذا الفن ، ولكن نوجز بتقديم عن ذلك ليكون توطئة لدراسة رسالة ابن زيدون الهزلية والتركيب الفني لجملها .

ثانيا ـ فن الرسائل في الأدب العربي :

ذكرنا أن هذا اللون من الأدب لم يكن وليد العصر الذي كتبت فيه هذه الرسالة ، بل سبق الكتاب إلى هذا اللون الأدبي منذ عصور متقدمة ، وقد حفظت لنا كتب الأدب العربي ومصادره بعضا من الرسائل التي كتبت في العصر الجاهلي (3) منها رسالة قصي بن كلاب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة العاذري المقيم في الشام ، وقد تضمنت تلك الرسالة طلب النصرة على زعامة مكة ، ورسالة قيصر الروم إلى امرئ القيس ، ورسالة لقيط بن يعمر الشعرية ، (سلام بالصحيفة من لقيط ...) ، ورسالة المتلمس التي كتبها عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين لقتل طرفة بن العبد ،(4). فهذه وغيرها مما جمعه مؤرخو الأدب العربي من رسائل العصر الجاهلي التي تفيد أن العرب قديما عرفوا فن كتابة الرسائل ، وإن لم يكن بالمعايير الفنية التي وضعت له لاحقا ، ولكن تظل هذه الرسائل بواكير الكتابة الفنية .

وهذه الرسائل قليلة جدا يغلب عليها الايجاز والاقتضاب وعدم التركيز ، وغير واضحة المعاني ؛ لأن الكتابة كانت نادرة بين العرب ، كما أن جلها كتب في مناسبات محدّدة تحمل طلبا أو تحذيرا (5) ؛ ولكن كما ذكرنا فهي إشارة إلى بوادر ظهور فن الرسائل في الأدب العربي، ومن بعد ذلك بدأت كتابة الرسائل تنمو منذ عصر صدر الإسلام إلى يومنا هذا. فبمجيء الإسلام ازدادت معرفة العرب بالكتابة ؛ بل تداولوها ولكن بندرة وهذا ما جعلهم يتخلون عن الرسائل في أغراضهم النثرية.(6)

وتطـــوّر فن الرسائل تطورًا هائلا في العصر الأموي من خلال تعدّد أنواع الرسائل السياسية التي كانوا يتراسلونها فيما بينهم، وظهر في هذا العصر نوع جديد من الرسائل هو الرسالة الوعظية مثل رسائل الحسن البصري الوعظية التي أرسلها إلى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (7) ، وفي العصر العباسي نشـــط فن الرسائل نشاطا واسعا خاصة الرسائل السياسية منها، وساعد على ذلك تدوين الدواوين وكثرتها في هذا العصر، " فقد انتشر التدوين على نطاق واسع، وكان هؤلاء الكتاب يختارون من الفصحاء والبلغاء، وقد تحولوا بالدواوين العباسية إلى ما يشبه مدرسة نثرية كبيرة (8) ، أما في العصر الأندلسي الذي كتبت فيه هذه الرسالة ـ موضوع دراستنا ـ فقد تميز فن الرسالة تميزا هائلا؛ ذلك " كون كتاب الرسائل من أبرز شعراء الأندلسي، حيث استخدموا مواهبهم الشعرية وذوقهم الأدبي للارتقاء بأساليب تعبيرهم والتفنن به."(9) ، وقد جعلوها أداة تعبير وعرض لشتى الموضوعات، " حتى لقد فاقت الشعر في ذلك بفضل ما في صناعة النثر من المرونة والتحرر من قيود الوزن والقافية."(10)

ومن ثم أصبحت كتابة الرسائل فنًا يتســـابق الكتاب فيه، ولما كان ذلك فإن النقاد الأوائل كما وضعوا ضوابط لكتابة الشعر، فإنهم عنوا بهذا الجانب من فن الرسائل ووضعوا له ضوابط فنية، فكما عنوا بالقصيدة وتعريفها وأقسامها (11)، وضعوا تقسيما وتبويبا للأعمال النثرية، والرسائل الأدبية، فجعلوا لها نمطا وتقسيما معينا يسير عليه الكاتب؛ حتى يعد ما يكتب عملا فنيا. فقسموها مقدمة وموضوعا وخاتمة، ولكل قسم من هذه الأقسام ضوابط فنية يقاس بها إبداع الكاتب وإجادته. فمثلا إذا ما وقفنا عند مقدمة الرسائل، فأبرز ما وضعوه شرطا لها ويكون سمة فنية لها تتسم، أن يكون ابتداؤها بذكر اسم الله وحمده.

ولقد تحدث أبو هلال العسكري على أهمية الابتداء بالتحميد وما له من أثر في النفوس فيقول " إذا كان الابتداء حسناً بديعاً، وملمحاً رشيقاً كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، لهذا جعل أكثر الابتداءات" بحمد لله " ؛ لأن النفوس تتشوق للثناء على الله فهو داعية إلى الاستماع"(12).

غير أن ابن زيدون في هذه الرسالة خالف هذا الشرط، فلم يذكر في مبدئها اسم الله وحمده؛ وذلك لمقتضى حال كاتبها الغاضب حين كتابتها، أيضا لطبيعة الغرض الذي كتبت فيه وهو السخرية والاستهزاء. وفي غير ذلك التزم ابن زيدون بما نص عليه نقاد عصره من ضوابط كتابة الرسائل الأدبية.

وأما قيمة هذه الرسالة الأدبية، فتعد هذه الرسالة معينا ثقافيا ينهل منه قارئها؛ فقد شحذ ابن زيدون فكره، وأفرغ مخزون ثقافته في هذه التحفة الأدبية، فجمع فيها مختلف العلوم والأخبار وأسماء العلماء والفقهاء والأطباء والشعراء، ومن ذكر اسمه في التاريخ العربي والأعجمي، وهذا ما جعل لها قيمة أدبية كبيرة. فهي تجمع بين الفن والمعرفة. فكما نجد فيها الإبداع الفني، نجد المعلومة التفافية.

وما نقصده بالمعلومة الفنية ، هو الأسس التي بني عليها النص، فالعمل الأدبي فكرة تجول في ذهن الأديب، عبر عنها باللغة التي هي ألفاظ ووسيلة تعبير، وصاغ تلك الألفاظ بأسلوب أدبي، مقربا فكرته لذهن المتلقي بضروب البلاغة وفنون التصوير، فمتى ما أجاد الأديب في تخير هذه الأليات الفنية ، كان نصه أكثر قيمة للقارئ، إذ القارئ الأديب ينظر إلى العمل الأدبي بكونه طريقا يســير عليه فيما يكتب من نصوص أدبية، ويكتسب به ثقافة فنية تضيف الكثير إلى موهبته الأدبية التي خلق بها.

أما المعلومة العلمية فلا يختص بها المتلقي الذي يمارس الكتابة الأدبية فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى كل من يقرأ النص ، إذ تضيف إليه معلومة تاريخية أو فلسفية أو دينية أو تراثية، فكلما كان النص زاخــرا بهذه العلوم والمعارف، كان أكثر قيمة أدبية للقارئ.

فالجانب العلمي جلي واضح فيها، فقد وظف ابن زيدون ثقافته الكبيرة وعلمه الغزير بشتى العلوم الدينية والتاريخية والفكرية في كتابة هذه الرسالة، وقد يكون تعمد ذلك ليظهر سعة علمه لخصمه الذي يخاطبه بها ، فمن ثقافته الدينية نجده يشير إلى قصص الأنبياء، يوسف وموسى ونوح وغيرهم ممن لهم قصص في القرآن الكريم. أما الجانب الفني فهو ما سنتناول أحد جوانبه في هذا البحث.

هذا عرض موجز عن هذه الرسالة قدمنا به ليكون مدخلا للحديث عن أحد الجوانب الفنية فيها وهو تركيب الجمل، وننظر كيف وظفه الكاتب لخدمة المعنى؛ ولكن لما كان بحثنا عن تراكيب الجمل ، فمن نافلة القول أن نعرف بهذا المصطلح الذي هو موضوع البحث، قبل البدء في تطبيقاته في رسالة ابن زيدون.

ثالثا ـ تراكيب الجُـمل :

مفهوم الجمـــــلة: عند الرجوع إلى معنى الجملة في قواميس اللغة العربية نكاد لا نجد اختلافا بين اللغويين في تعريفها، فيعرفها الخليل بن أحمد " والجملة: جماعة كل شيء بكماله من الحساب وغيره، وأجملت له الحساب والكلام من الجملة " (13) ، ويعرفها ابن فارس في مقاييس اللغة: "أجملت الشيء، وهذه جملة الشيء، وأجملته حصلته " (14) ، وفي الجمهرة يعرفها ابن دريد: " أجملت الشيء إجمالا إذا جمعته من غير تفرق ، وأكثر ما يستعمل ذلك في الكلام الموجز، يقال : أجمل فـــلان الجـــواب " (15). ويعرفها عبد القاهر الجرجاني : " الجملة عبارة عن مركب من كلمتين أسندت احداهما إلى الأخـــرى سواء أفاد كقولك زيد قائم، أم لم يفد كقولك إن يكرمني " (16) وبذلك فمعنى الجملة أنها مجموعة ألفاظ مركبة فيما بينها، أسند كل لفظ إلى آخر ليعطي معنى مفيدا.

فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلمات مفردة، وإنما في تركيب تلك الألفاظ، وفي ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها لتعطي معنى.

أقسام الجمـــــلة : في تحديد أقسام الجملة يقول ابن يعيش:" واعلم أنه قسم الجملة إلى أربعة أقسام، فعلية، وإسمية ، وشرطية، وظرفية، وهذه قسمة أبي علي، وهي قسمة لفظية، وهي في الحقيقة ضربان: فعلية واسمية؛ لأن الشرطية في التحقيق مركبة من جملتين فعليتين، الشرط فعل وفاعل، والجزاء فعل وفاعل " (17) ، أي : أن الجملة عندهم قسمان اسمية وفعلية، وما تفرع عن ذلك من شرطية وظرفية وغيرها فهو جزء منهما ، ومن ثم فالنحويون في حديثهم عن الجملة وتقسيمها من حيث الاسناد جعلوها قسمين لا ثالث لهما :اسمية، وفعلية، وما عداهما راجع إليهما.

رابعاـ بنية الجملة الاسمية في رسالة ابن زيدون وتركيبها :

عنـــدما نقرأ رســـالة ابن زيدون الهزلية، ونتتبع تراكيب الجمل فيها ، نلاحظ أن ابن زيدون استهل رسالته بجملة اسمية معتمدا فيها على النداء ـ أيها المصاب بعقله ـ، تم تابع خطابه بذات التركيب، جملا اسمية متوالية تحمل مضمونا أو وصافا للمخاطب " أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه " (18) فجاءت جملا إسمية متناسقة متوازية، اتسمت بالقصر؛ مما أعطاها نغمة موسيقية موحدة، وقد جاءت مقتضبة كبداية خطابه واستفتاح رسالته الذي جاء أبترًا.

فحالة الغضب التي كانت تسيطر على ابن زيدون وهو يكتب هذه الرسالة , والتي جعلته يستعجل في الدخول لرسالته بصورة بتراء , وضلت تسيطر عليه في بدء حديثه , فجاءت جمله مقتضبة قصيرة , فهذه الجمل البسيطة في تراكيبها ، خرجت من نفس ثائرة غاضبة , فكأن الكلام يتلعثم في فمه وهو ينطقها , وهي علي بساطة تركيبها إلاّ أنه حاول أن يجمع فيها مثالب شتي , فنقف عند قوله: - المصاب بعقله – فهي جملة اسمية بسيطة ، ولكن تحمل في معانيها الكثير من المعاني ، فمن فقد عقله فقد الرشد ، والاتزان ، والفهم ؛ فلا يؤاخذ بما يقول وما يفعل . وهذا هو حال خصمه ابن عبدوس، فمن أصيب بعقله، لا يسأل عن حمقه وسوء تدبيره، بل ويخرج عن صفات الإنسان الذي يميزه العقل عن سائر الحيوانات، وأيضا قوله ـ المورط بجهله – نجد فيها الكثير من المعاني والصفات التي تتولد منها، فالجهل يوصل إلى الحمق، فلا يعرف الجاهل قدر نفسه وحقيقتها؛ ليقف عندها، بل يزين له الجهل والحمق صورته ويحسب الناس تراه بعينه، وكما يرى هو نفسه، ولكن الحال غير ذلك فالناس تنفر منه لجهله وحمقه وسوء طبعه. وهذا هو حال ابن عبدوس الذي كتبت فيه هذه الرسالة. يرى نفسه كفؤا لــولاّدة ابنة الخليفة، بل أوهمته نفسه بأنه ند لابن زيدون.

وهكذا فإن هذه الجمل القصيرة في تركيبها تحمل معان كثيرة وأوصافا جمة ، أفرغ ابن زيدون بها شيئا من غضبه . وعبر بها عما يجيش في صدره تجاه ابن عبدوس . وهذه الجمل المتسمة بالقصر جاءت بسيطة التركيب لا تتجاوز المبتدأ والخبر المفردين ، فقد تعمد أن تكون قصيرة ليكون لها إيقاعا سريعا ، يشبه قرعات العصا على الخشب ، فكأنها ضربات سريعة متوالية لخصمه لتنهك قواه ويعجز عن الرد .

ويلاحظ أن ابن زيدون كلما جنح في رسالته إلى ذكر الأوصاف الذميمة لخصمه ، انفعل وجاءت جمله قصيرة ، ففي جزء آخر من رسالته وبعد أن استرسل فيها ، يعود إلى السباب وذكر نقائص خصمه ، فيعاود الاتكاء على الجمل القصيرة فيقول : " هجين

القذال ، أرعن السبال ، جافي الطبع ، بغيض الهيئة ، ظاهر الوسواس ، منتن الأنفاس ، كثير المعايب ،مشهور المثالب ... " (19)

وبعد هذا الدخول السريع لرسالته، الذي أفـــرغ به شيئا من غضبه ، التقط أنفاسه فبدأت تطول الجمل في خطابه وتظهر جملا مركبة تتجاوز المبتدأ والخبر.

فيقول " العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره "(20)

فهنا جاء الخبر شبه الجملة ؛ إذ انبسط الكاتب في حديثه، وبدأ يفصل في مواطن النقص في المخاطب ((ابن عبدوس)) الذي غرته نفسه فظن أن ابتعاد ولادة عن ابن زيدون يفتح له باب الاقتراب منها وطلب ودها، فهو كالأعمى الذي لا يبصر حقيقة ما حوله ولا يعي أنها جفوة وتزول بمرور لأيام.

تم تتوالي عند ابن زيدون الجمل الإسمية وتأخذ طابع الطول والتركيب فيقول : " الساقط سقوط الذباب على شراب ,المتهافت تهافت الفراش في الشهاب " (21) فابن زيدون ركب جملته من مبتدأ وخبر ثم مفعولا مطلقا (سقوط) وأضاف إليه الذباب ، ثم جاء بشبه جمله لزيادة التوضيح

وهكذا فعل في الجمل التالية ـ المتهافت تهافت الفراش على الذباب ـ فنلاحظ أن الجمل تطول عند ابن زيدون كلما تقدم في حديثه وخطاب رسالته ، فكأنه كلما أفرغ شيئا مما في نفسه ، انبسط القول عنده ، وبدأت الجمل تطول في خطابه ، ليأخذ خطابه أسلوب الحوار بينه وبين خصمه ، وعندما نقول (بينه) فهذا بواقع حال الرسالة بأن كاتبها هو ابن زيدون ، أما الجانب الفني الذي كتب به ابن زيدون الرسالة فإن الحوار يجري بين ابن عبدوس وولادة .

فيقول بلســـان ولاّدة : " فإنك راسلتني مستهديا من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك ، متصديا من خلتي ما قرعت دونه صنوف اشكالك "(22) ، فهنا أكَد الجملة في بدء حديثه بـ (أن) ثم ركب جملته الاسمية من اسم أن والخبر جملة فعلية (راسلتني). من فعل وفاعل ومفعول به , ثم الحال في قوله (مستهديا) ، ثم شبه جمله (من صلتي) ثم جملة اسمية أخرى ، (ما صفرت منه أيدي أمثالك) وهي أيضا جمله اسمية خبرها جملة فعلية (صفرت منه أيدي أمثالك)، والحال نفسه في الجملة التي تلتها ," متصديا من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك " (23) فنلاحظ أنها جاءت مركبة يشوبها شيء من الطول ,ولا تكتفي بالخبر المفرد, بل يتعدى المبتدأ الى طلب شبه الجملة وإلى جملة أخرى ليكتمل خبر المبتدأ الأول ، ثم إلى المفعول به ، وإلى الحال ـ أيضا ـ .

ما نريد قوله من ذلك إن ابن زيدون بدأ رسالته بجمل اسمية قصيرة بسيطة وبتفاعله مع النص بدأت تطول هذه الجمل تدريجيا وبدأ التركيب يظهر عنده من شبه الجملة إلى

الجملة الثانية سواء فعلية او إسمية. وفي جلّ هذه الجمل الإسمية التي يوردها ابن زيدون يحرص أن تكون علي ما وضعت له من ترتيب، فالمبتدأ فيها يليه الخبر إلاّ في القليل من جمله مثل قوله : " ولولا أن للجوار ذمة ، وللضيافة حرمة "[24]، ففي هاتين الجملتين تقدم الخبر شبه الجملة على المبتدأ النكرة - أيضا - يلاحظ في هذه الرسالة أن ابن زيدون كثيرًا ما كان يأتي بالأسماء على صيغة اسم الفاعل " الفاحش غلطه , العاثر في ذيل اغتراره ,الساقط سقوط الذباب, المتهافت تهافت الفراش ..... زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه , قاطعة أنك انفردت بالجمال " (25)

فجاءت الأسماء بصيغة اسم الفاعل :(فاحش ، عاثر ، ساقط ، متهافت ، زاعمة ، قاطعة) ، فابن زيدون وهو يسوق لنا هذه الصفات عن ابن عبدوس بصيغة اسم الفاعل، وكأنه يقول لنا ويؤكد ان المخاطب هو من أوقع هذه الصفات على نفسه وليست بفعل فاعل آخر، وفي هذا زيادة تأكيد حمقه وجهله وسوء تصرفه . أيضا ولزوم هذه الصفات له .

كما نلاحظ اعتماده على صيغة (فعيل) في ما يأتي به من أسماء، مثل قوله: " هجين القذال، طويل العنق، بغيض الهيئة, سخيف الذهاب والجيئة, كثير المعايب" (26) وفي هذا زيادة ومبالغة في تأكيد الصفة الذميمة للمهجو ابن عبدوس .

ومن جانب تركيب الجمل الأسمية- أيضا- ، نلاحظ أنه يكثر تأكيدها بـ (أن)، في إصرار منه على إلصاق هذه الصفات بخصمه ابن عبدوس مثل قوله : " قاطعة أنك انفردت بالجمال , واستأثرت بالكمال , واستعليت في مراتب الجلال, واستوليت علي محاسن الخلال , حتى خيلت أن يوسف - عليه السلام - حاسنك فغضضت منه , وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه, وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ...."(27)

وأحيانا يكون بـ (إنما) مثل قوله: "....وأن مالك ابن نويرة إنما أردف لك , وعروة بن جعفر إنما رحل إليك , وكليب بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتك , وجساسا إنما قتلته بأنفتك, ومهلهلا إنما طلب ثأره بهمتك , والسموأل إنما وفَّى عن عهدك , والأحنف إنما أحبتى في بردتك, وحاتما ؛ إنما جاد بوفرك ولقي الأضياف ببشرك, وزيد بن المهلهل إنما ركب بفخذيك , والسليك بن السلكة , إنما عدا على رجليك..."(28) . وهكذا نجد هذه التأكيدات كثيرة في هذه الرسالة ؛ سعيا من ابن زيدون لتأكيد وجود صفة ذميمة في خصمه ابن عبدوس ، أو لتأكيد عدم وجود صفة حميدة فيه.

كما يلاحظ في هذه الجمل الاسمية أن ابن زيدون أكثر من توجيه الخطاب بضمير المخاطب (الكاف) ، ولم يذكر اسم خصمه ابن عبدوس فبعد أن بدأ رسالته بـ (أيها) جاء حديثه بـ (أنك) ومن مثل ذلك قوله :" وإنك راسلتني مستهديا , ما صفرت منه أيدي

أمثالك ، متصديا من خلتي لما قرعت دونه صنوف أشكالك , كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها إليَّ "(29)

ومن خطابه بحرف الكاف قوله: " كلامك تمتمة ,وحديثك غمغمة ,و بيانك فهفهة وضحكك قهقهة, ومشيك هرولة, وغناك مسألة , ودينك زندقة , وعلمك مخرقة "(30)

فهو يترفع عن ذكر اسم خصمه سواء دعت الضرورة إلى الاستعاضة عنه بالكاف أو لم تدع , وسبب ذلك أنه يسعى في كل رسالته إلى الحط من شأنه و تصغير قدره عند كل من يقرأ هذه الرسالة .

جملة القول في هذا الجانب من بناء الجملة الإسمية في هذه الرسالة ، إن ابن زيدون صدَّر حديثه ، بها وحرص على أن يكون حديثه أوصافا من خلال الأسماء التي استفتح بها "المصاب, المورط , البين ،الفاحش ،العاثر ،الأعمى ، الساقط ،المتهافت " (31)

فابن زيدون كاتب هذه الرسالة أديب برع في شتى فنون الأدب ، وانقادت له اللغة يتصرف في ألفاظها ومعانيها كما يشاء ، يتصرف فيها بما يراه يؤدي الفكرة التي يريدها أن تصل إلى سامع خطابه ، ولهذا عمد إلى الجملة الاسمية ، فمن صفات الاسم اللزوم عكس الفعل الذي سمته التغير , فعندما يصف ابن زيدون غريمه ابن عبدوس بهذه الصفات بالاسم من خلال الجملة الاسمية فكأنه يؤكد لنا أن هذه الصفات الذميمة ثابتة في خصمه وليست عارضة تزول بزوال المسبب لها . فالإصابة بالعقل , والجهل , وبيان السقط ، والفحش والعمى عن الحقيقة ....كلها صفات لازمة في ابن عبدوس ، جبل عليها وخلق بها لن تتغير ولن تتبدل ، وهذا يعد من حسن تخير ابن زيدون لتراكيبه اللغوية وحسن تصرفه في ضروب الكلام , حتى يؤدي المعني .

خامسا ـ بنية الجملة الفعلية في رسالة ابن زيدون وتركيبها :

عندما ننظر إلى الجملة الفعلية و استخدام ابن زيدون لها واعتماده عليها في هذه الرسالة ، فسيكون ذلك من جانبين ، الأول من حيث تركيب الجملة (بسيطة – مركبة) والجانب الآخر من حيث زمن الفعل وكثرة استعمال ابن زيدون لأي من الأزمنة في خطابه، حيث بدأ بالحديث عن الجمل المركبة و البسيطة نلاحظ أن جل الجمل الفعلية التي وردت في الرسالة ، جاءت أخبارًا لجمل اسمية ، فالغالب أن يكون بِدْء الكلام عنده بالجملة الإسمية ، وأشرنا في حديثنا عنها في ما سبق أن ذلك مراعاة لرسوخ الفكرة وثبات الصفة ولزومها في خصمه ، فعندما بين حديثه بالجمل وقلة الفعل وكثرة السقطات فإن هذه الصفة تكون لازمة لابن عبدوس ثابته في خصالة ، ومن بعد ذلك يأتي بما يوضحها فيعمد الي الجمل الفعلية.

ومن ثم نجده يقول في بدايات خطابه لابن عبدوس " وأنك راسلتني مستهديا من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك ، متصديا من خلتي لما قرعت دونه صنوف أشكالك ،..... كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها إلي ، وتخلف بعدها على" (32)

فنلاحظ ان ابن زيدون بدأ الحديث على لسان ولادة بجملة اسمية نسخت بحرف ناسخ ((أن)) فجاءت الجمل فيما بعد (راسلتني، صفرت، قرعت ،ستنزل) خبرا لما جاء في الجمل الاسمية .

ومثل ذلك قوله " وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ، والاسكندر قتل دارا في طاعتك ، و أزدشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم من جماعتك ....." (33).

وهكذا نجد هذه الجمل الفعلية التي جاوزت الثلاثين جملة متتالية ، جاءت بهذا النسق وهذا التركيب (خبرا لجملة اسمية) ، فلما أراد ابن زيدون تغيير صياغة جمله لم يبعد كثيرا عن هذا النسق الذي سار عليه سابقا ، فبعد أن عدد جملة من أفعال وصفات ملوك وعلماء وفلاسفة وكرماء العرب والعجم ليحاجج بها ابن عبدوس ويقلل من شأنه بعد ذلك استبدل تركيب جمله الفعلية بشيء من التغيير فيقول : " وأنك نهجت لأبي معشر طريق القضاء " فنلاحظ أن الجملة الفعلية جاءت خبرا لجملة اسمية(خبر أن).

ويقول في ذلك "وإنك الذي أقام البراهين .... "(34). تم تعاقبت الجمل الفعلية المعطوفة على هذه الجملة ، فيسترسل فيقول :" ووضع القوانين ، وحد الماهية ، وبين الكيفية ، وناظر في الجوهر ، وميز الصحة من الفرض ، وفك المعمى ، وفصل بين الاسم والمسمى ، وضرب وقسم ، وعدل وقوم ، وصنف الأسماء والأفعال ، وبوب الظرف والحال، وبنى وأعرب، ونفى وتعجب ، ووصل وقطع ، وثنى وجمع ، وأظهر وأضمر ...." (35)، فبدأ حديثه بجملة إسمية خبرها جملة فعلية وقعت خبر إن، ثم والحقها بجمل فعلية متتالية معطوفة على الجملة الفعلية ، ولا يخــرج عن هذا السياق في خطابه فيبدأ دائما بجملة مؤكدة بأن ، ثم يسوق لنا جملا فعلية متتالية فإذا ما أحس ابن زيدون أنه أطال وأكثر من جمله الفعلية ، وقف ليعيد البناء بـ (أن) فعلى الرغم من أن هذه الجمل الفعلية الكثيرة جاءت معطوفة على جملة اسمية ، إلا أن صفة الفعلية تلازمها ، وهي جمل كثيرة في خطاب ابن زيدون ، وهذه الجمل الفعلية المتعددة في رسالة ابن زيدون ، إذا نظرنا فيها من حيث البساطة والتركيب نجدها تنوعت بين الاثنتين ، فمن الجمل البسيطة التي جاء بها ابن زيدون في رسالته قوله : " نخــرت وبســرت ، وعبست وكفرت ، وبدأت وأعدت ، وأبرقت وأرعدت " (36)، فمثل هذه الجمل جاءت بسيطة اعتمد فيها ابن زيدون على الفعل والفاعل ، ولم يجاوزهما إلى المفاعيل ، والفاعل فيها جاء ضمير المتكلم (التاء) ، وقد أعطت هذه الجمل القصيرة المتوالية نغما موسيقيا يشد

السامع ، وربما هذا هو ما أراده ابن زيدون من هذه الجمل القصيرة، ونجده أحيانا يأتي بهذه الجمل القصيرة البسيطة فيذكر الفعل والفاعل ويغفل ذكر المفعول ؛ ليترك المجال لذهن القارئ ليصل إليه .ومن ذلك قوله: " ...وبنى وأعرب ، ونفى وتعجب ،ووصل وقطع ،وثنى وجمع ،وأظهر وأضمر، واستفهم وأخبر، وأهمل وقيد، وأرسل وأسند، وبحث ونظر" (37) ، فابن زيدون في هذه الجمل التي أوردناها ذكر الفعل الذي ابتدأ به الجملة ، ثم أضمر الفاعل بتقديره (أنت) حيث إن بدء الكلام قوله (.... أنك الذي أقام البراهين) ، فجاءت الجمل التالية معطوفة على هذه الجملة .

أما المفعول به فلم يذكره ابن زيدون وترك السامع يفهمه ويصل إليه من سياق الكلام، فعند قوله (بنى وأعرب) فالقارئ يفهم أن المفعول به هو بنى الأسماء أو الأفعال، وأيضا أعرب الأسماء أو الأفعال .وهكذا في كل الجمل السابقة ، المفعول به يفهم من سياق الكلام .

أما الجمل الفعلية المركبة فنجدها حاضـــرة في رسالة ابن زيدون ، وكان لها دور في تركيب الخطاب الذي صاغ به فكرته وعبر به عن ما يجول في ذهنه، وأفرغ من خلاله سورة غضبه على خصمه الوزير ابن عبدوس، فتارة نجد ابن زيدون يأتي بجمله الفعلية مركبة من فعل وفاعل مضمر ومفعول به . مثل قوله في جملة فعلية جاءت خبرا لجملة إسمية سبقها حرف ناسخ " أقام البراهين ، ووضع القوانين، وحد الماهية، وبين الكيفية والكمية "(38)، ومثل قوله في جمل متتالية جاءت خبرا لحرف ناسخ (أن) " ... أن قارون أصاب بعص ما كنزت، والنطف عثر على فضل ما ركزت، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك "(39).

فالجمل السابقة جملا إسمية ، الأولى منها جاءت خبرا لحرف مشبه بالفعل (أن) ثم عطف الجمل الأسمية الأخرى عليها النطف عثر.....، كسرى حمل .....، قيصر رعى .....، وهذه الجمل الفعلية التي جاءت أخبارا لجملة أسمية ، جاءت جملا مركبة من فعل وفاعل ومفعول به ، والمفعول به مضاف والكاف مضاف اليه ، وبذلك ، فمتى ما تقدم ابن زيدون في صياغة رسالته كلما ازداد عدد الجمل المركبة، وبدأت تميل الى الطول. لكثرة المعاني التي تتزاحم في ذهنه .

أما في الحديث عن زمن الفعل فسننظر في الأفعال التي وردت في هذه الرسالة من حيث إنها فعل ماض أو مضارع أو أمر أو مستقبل . ولاشك أن هذه الرسالة شأنها شأن الكتابات الأدبية الأخرى ، تحوي بين طياتها كل الأزمنة ، ولكن سننتظر في أي هذه الازمنة أكثر حضورا فيها .فزمن الفعل له دلالة كبيرة على المعنى الذي يساق فيه ، كما يبرز من خلاله حسن تصرف الكاتب في اللغة ، بحيث يتخير من الأفعال أكثرها دلالة

على المعنى ، فكما أن من ضرورات تراكيب أي نص أن يكون أسماء وأفعالاً وحروفاً ، فإن هذه الأفعال لابد أن تتباين في أزمنتها ما بين ماض ومضارع وأمر ، والكاتب عندما يختار في كتابته زمن الفعل الذي يأتي به؛ سيكون لذلك الاختيار وظيفة يؤديها في النص ، ودلالة على المعنى ، وتقاس تلك الوظيفة أو الدلالة ، بغلبة استعماله لزمن فعل من الأزمنة .

وبالنظر في رسالة ابن زيدون من حيث زمن الأفعال سنجده لم يستعمل فعل الأمر إلا ثلاث مرات في قوله : " وهبها لم تلاحظ بعين كليلة عن عيوبك "(40) ، وفي قوله : " وهبك ساميتهم في دروة المجد والحسب " وقوله : " ولا تكن براقش الدالة على أهلها "(41). فهذا الأمر ليس على حقيقة طلب فعل الأمر ، بل جاء به ابن زيدون لغرض السخرية والاستهزاءً، فعندما يقول لغريمه هبك ساميتهم في المجد ، فهذا الفعل يحمل في معناه السخرية والإزاء لمكانة خصمه ، وطعنا في حسبه ونسبه الذي لا يرتقي الى الذروة التي وصل إليها مجد ابن زيدون وعراقه نسبه، والحال ذاته في قوله : " ولا تكن براقش .." ، فهنا استهزاء برجاحة عقل غريمه ووصفه بسوء التدبير فهو كبراقش التي جرت التهلكة على نفسها وقومها بسوء تدبيرها وشدة حمقها .

أما الأفعال المضارعة التي وردت في الرسالة فهي ثلاث وعشرون فعلاً بزمن المضارع ؛ ولكن يلاحظ عليها أنها جاءت في جلها بعد أداة النفي (لم – لا) مثل قوله: (لم تضن بك ، لم تغر عليك ، لم تجد لرمح مهزا ، لم تلاحظك ، لا تكلفت لك زيادة ، لم تكن كاذبة ، لا يجتمعان ، لا يتقاربان ، لا يباع ، لا يصيده ، لا يصيبه ، لا أمتطي الثور ، لم يجد ماء ، ....)، وهذا التركيب الذي اعتمده ابن زيدون لزمن المضارع يدل على عدم تحقق الفعل، ولهذا فإن الفعل الحميد لا ينسب إلى غريمه ابن عبدوس ، فولادة لم تغــر عليه ، ورمحه لم يهتز شجاعة ، وولادة لم تلاحظه ، ولا تكلفت له ...، وهكذا كل الأفعال لم تتحقق لأن ابن عبدوس ليس كفؤاً لها.

أما الزمن الماضي فله حضور كبير في هذه الرسالة ؛ بل جل الأفعال جاءت بزمن الماضي ، حتى يمكن القول إن من السمات المميزة لهذه الرسالة ، أن خطابها جاء بالزمن الماضي

وربما السياق الذي جاءت فيه الرسالة وأسلوب السخرية والمقارنة بمن مضى من الشخصيات والأحداث، فرض على ابن زيدون أن يتحدث بالزمن الماضي ، وربما هذا الزمن الماضي أراد ابن زيدون أن يوحى به إلى أن ابن عبدوس شيء قد مضى وانتهى ، ولن يكون له وجود في حياة ولادة بعد هذه الرسالة التي حط فيها من شأنه .

وصفوة القول في الحديث عن زمن الفعل في هذه الرسالة أن الغلبة كانت فيها لزمن الفعل الماضي الذي كان له حضور كثيف في الرسالة ، أما المضارع والأمر فجاءا بصورة عارضة ، وحتى في ورودهما في الرسالة فقد وظفا بما يؤكد الزمن الماضي .الذي حرص ابن زيدون على أن يكون خطابه من خلاله .

الخاتمة :

خلاصة القول في هذا البحث، أنه بعد تتبع أحد الجوانب الفنية في رسالة ابن زيدون الهزلية ، وهو تراكيب الجمل ، والبحث عن دلالة تلك التراكيب ، نقول إن ابن زيدون ظهرت براعته في توظيف اللغة ، وحسن تركيبه لجمل رسالته بما يخدم المعنى ، فجاءت معبرة عن حالته النفسية التي كان فيها ثائرا غاضبا غيورا ، وأوضحت الفكرة والمعنى الذي يريد الكاتب أن يصل إليه القارئ ، وهو الغض من غريمه وخصمه ابن عبدوس ، وقد استهلها بجمل اسمية قصيرة مقتضبة، توحى باضطرابه وشدة غضبه ، وبدأت تطول كلما أفرغ شيئا مما في نفسه ، وقد حرص على أن يكتب جل رسالته بتراكيب الجملة الإسمية ليعطي الأوصاف التي وصف بها خصمه صفة الثبات. وأما جمله الفعلية فجلها جاء بصيغة الماضي لتوحي لنا بأن من كتبت فيه هذه الرسالة أصبح ماض وانتهى بعد ما كتب فيه.

الهوامـــــــــش :

1 أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح، يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1978م، ج9، ص 3

2- أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1، م1، تح: احسان عباس، الدار العربية للكتاب، د، ط، 1975، ج2، ص 32

3 - ينظر أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ن ط1 المكتبة العلمية – بيروت ،1937، ج1 ،ص9 وما يليه

4 -ينظر جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط4، دار الساقي –بغداد ، 2001 ج1، ص54

5 - ينظر: عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1976م، ص.448

6 - المرجع نفسه،.449

7- ينظر أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب في أدب وإنشاء لغة العرب ، دار الجيل ، ط.1 ، ص123

8- ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، مكتبة الحضارة العربية – القاهرة ، ط. 2011 ، ج2 ، ص44

9- مصطفى البشير ، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم ، دار اليازوردي العلمية للنشر ط.2009 ص25

10- المصدر السابق ، ص26
11 - ينظر ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ., ص271
12- أبو هلال العسكري , الصناعتين ، الكتابة والشعر , تح : مفيد قميحة , دار الكتب العلمية , ط 2 بيروت , 1984 , ص 131.
13- الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، ط. دار مكتبة الهلال ، ج6 ، ص143
14- أحمد بن فارس القزويني ، مقاييس اللغة ، دار الفكر ، 1399هـ ، ج1 ، ص481
15- أبوبكر بن محمد بن دريد الأزدي ، جمهرة اللغة ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط1 ، 1987 ، ج1 ، ص 561
16- عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة ، ط3 ، ص81
17- ابن يعيش ، شرح المفصل ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط1 ، 1422هـ ، ج1 ، ص229
18 - جمال الدين ابن نباتة المصري ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون , ، تح .محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1 ، دار الفكر العربي – مصر، ت. لا يوجد ، ص3
19 - المصدر السابق ، ص3
20- المصدر السابق ، ص3
21 - المصدر السابق ، ص3
22 - المصدر السابق ، ص6
23 - المصدر السبق ، ص3
24 - المصدر السابق ، ص6
25 - المصدر السابق ، ص3
26 - المصدر السابق ، ص4
27- المصدر السابق ، ص3
28 -المصدر السابق ، ص6
29 - المصدر السابق، ص3
30 - المصدر السابق. ص3
31 - المصدر السابق. ص3
32 - المصدر السابق. ص4
33 - المصدر السابق. ص4-5
34 - المصدر السابق. ص 5
35 - المصدر السابق. ص5
36 - المصدر السابق. ص4-5
37 - المصدر السابق. ص3
38 - المصدر السابق. ص6
39- المصدر السابق. ص8
40 – المصدر السابق ،ص6
41 – المصدر السابق ، ص7